ملاحظات حول اوضاع الطبقة العربية العاملة في فلسطين في عهد الانتداب

هاني حوراني

ان نظرة سريعة(١) على اشكال الاستثمار المختلفة في فلسطين في نهاية الحكم العثماني للبلاد ، والتطورات التي جدت على هذه الاشكال الاستثمارية خلال الحقبة موضع الدراسة « الانتداب » ، تظهر الاهمية القصوى للزراعة ضمن نظام الانتاج الوطني . ان اعتماد غالبية السكان على الزراعة ، والتحولات التي طرأت خلال هذه الحقبة ، على بنى الانتاج المختلفة، تظهر ان المسألة الزراعية كانت جوهريا قسمة اساسية عن المسألة الوطنية في البلاد ، وان طابع النضال الوطني ضد الصهيونية وضد الاحتلال البريطاني اتخذ في أحد وجوهه شكل هبات فلاحية ضد العسف والاضطهاد والاستثمار الامبريالي ــ الصهيوني ، ويعبر عن مضمون طبقي يتجاوز القيادات الوطنية الوجاهية شبه الاقطاعية وشبه البرجوازية . ويبرز ذلك في أوضح تعبير في الانتفاضات الكبرى والعصيانات المسلحة المعروفة .

ان احصاء عام ١٩٢٢ يظهر ان نسبة سكان الريف الى مجموع السكان هو ٧١٪ (٢)، ومن احصاءات متأخرة ، نلاحظ انخفاض عدد السكان المعتمدين على الزراعة (٥٤٪)(٣) وواقع الامر ان الهجرة من الريف الى المدن ، وانخفاض نسبة اعتماد العرب على الزراعية تعكس جملة من التطورات التي جدت على البلاد ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ، منها الهجرة الصهيونية وسياسة الاستيلاء على الاراضي وتهجير الفلاحين منها ، ومنها رزوح الفلاحين العرب الذين يمارسون زراعات تهدف نحو الاكتفاء الذاتي، لاثقال الضرائب والديون ولميزات الاستثمار الاقطاعي . عوضا عن افتقار أعداد كبيرة من الفلاحين للارض ، او ضآلة مساحتها ، الامر الذي كان يضاعف من وطأة المتطلبات المعيشية في شروط دخول الريف ضمن السوق الراسمالية المحلية وسيادة الاقتصاد النقدي وهي شروط لم يصاحبها تحسّين الانتاجية في الريف العربي عموما .

ومن الامور ذات الدلالة ، هو دخول الراسمالية الى الزراعة ، وازدياد اهمية المولين والتجار الوسطاء الى زراعات التصدير بصورة مضطردة جنبا الى جنب مع ازدياد حصة اليهود من افضل الاراضي التي تستثمر في الزراعات التصديرية وخاصة الحمضيات(٤). فحتى فترات متأخرة كانت المنتجات الزراعية هي الحصة الكبرى من صادرات فلسطين (٩٠٪ في عامي ١٩٣٤ ، ١٩٣٥)(٥)، وتشكل الاثمار الحمضية ٩٥٪ من المصدرات الزراعية(٦). ان ذلك يعكس ازدياد هيمنة السوق ، والراسمالية المحلية، وخاصة الاستثمارات الصهيونية على افضل الاراضي الزراعية ، ويعكس اهمية هذه الاستثمارات في اطار الاقتصاد الوطني عموما . ان هذا يتزامن مع ازدياد أوضاع الفلاحين العرب بؤسا من كافة النواحي واضطرار اعداد كبيرة منهم الى الهجرة للمدن، وعرض انفسهم في أسوأ شروط للاستثمار الرأسمالي(٧).